الفصل الثاني
الديانة المصرية القديمة
بين الوحدانية والتعددية

الوحدانية في الإسلام:

لا شك في أن كل مسلم يؤمن بإلهٍ واحدٍ، ويباهى ويفتخر بأنه يعبد إلها واحدا، وأنا لا أشكك في ذلك، ولكن دعنا ننظر إلى العقيدة من وجهة نظر أخرى، دعنا نناقش جزئية التوحيد، من وجهة نظر من لا يمُت للإسلام بصلة، بل من وجهة نظر من لا يمُت للغة الإسلام بصلة، ولا بتفاصيل جمال اللغة من وصف ومحسنات بديعيه وتعبيرات جمالية، أنا لا أفقهها أصلا....

عندما يقول المسلم أنني أؤمن بإله واحد، فالسؤال الطبيعي، من هو؟

وتكون الإجابة بلا تردد: هو الله الواحد الأحد الحي الصمد الخالق المحيي المميت.... مع استغراب شديد يصاحب الإجابة، والاستغراب هنا هدفه الاستفهام أيضا، فكيف للسائل أن يسأل عن الحي القيوم الرازق الذي بيده الملك.

وأنا لا أسأل للتشكيك، بل اسأل لأسمع هذه الإجابة، فعلا.....

فأنا أعلم علم اليقين، أن الله واحد، لا إله إلا هو الحي القيوم، وأنا أؤمن به، وأؤمن بوحدانيته، ولكن فمن هم هؤلاء الباقون،

أعنى إذا كنت تؤمن بالله، فمن هو الواحد، ومن هو الأحد، ومن هو الحي، ومن هو الصمد.....؟؟

إنها صفات، صفات للذات الإلهية، فلله الأسماء الحسنى، وقد أحصى منها تسع وتسعين اسما، كلها لله الواحد الأحد، تسع وتسعون صفة، سمّا بها الله نفسه، ولكنها في نفس الوقت، لا تمت للتعددية بصفة، ولا تمت للشرك بحال، والأسماء هنا مرتبطة بالصفات، والصفات مرتبطة ارتباطا زمانيا ومكانيا، فعندما يدعو المسلم؛ من أجل زيادة رزقه، فإنه يدعو الله باسمه المرتبط بالرزق، فترانا نقول: يا رب يا رزاق، ارزقنا يا الله، ومن المؤكد، إننا لم نعنِ دعوة إلهين في آن واحد، فقد ذكرنا في دعاءنا الله والرزاق، ولكننا كنا نعنى بكل تأكيد: الله الواحد الأحد، وقد دعوناه باسم من أسمائه الحسنى، دعوناه بالرزَّاق، أو بالرازق، لارتباط الاسم بالحال.

وعند الخوف، فإننا ندعو الله الواحد القهار، وعند الطمع في رحمة الله، فإننا ندعو الرحمن الرحيم، وندعو مالك الملك، وندعو المنتقم، وندعو خالق كل شيء، وندعو من لا ينام، وندعو فالق الإصباح، إننا ندعو الله الواحد الأحد، ولم يخطر ببالنا إطلاقا، أننا ندعو أسماء متعددة، نعم إنها أسماء متعددة، ولكنها لكينونة واحدة، ولذات إلهية واحدة. ألا وهو الله؛ الواحد الأحد؛ الفرد الصمد؛ الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

الوحدانية في المسيحية:

بسم الآب والابن والروح القدس، إله واحد..... آمين.

وأسأل المسيحي كما سألت المسلم، كيف يكون الآب والابن والروح القدس، إله واحد؟ فأنا أراهم ثلاث.... ألم تذكر آب، وابن، وروح قدس، إنهم ثلاثة، فكيف لك أن تقول إلها واحدا؟

وبلا شك، سوف تقابل نفس الإجابة، إنهم إله واحد، ولكن الآب قد تجسد في صورة الابن، وما هو إلا روح قدس، لكن البشر أخطأوا، وأخطاؤهم عظيمة، ولكن رحمة الخالق أعظم، لذا كانت عملية التجسيد من أجل الخلاص، خلاص البشر من ذنوب اقترفوها، ومازالوا.....

فقد تجسد الله في صورة المسيح الحي، ليصلب أو لا يصلب، مضحيا من أجل خلاص الشعوب، ومضحيا من أجل خلاص البشر، ورحمة من الله، فقد تم التجسد في صورة بشرية، صورة يسوع.

نرى التعددية مرة أخرى، وقد عادت إلى الوحدانية، الآب، الابن، الروح القدس، ويسوع، ولكن في النهاية إله واحد.

الوحدانية في الديانة المصرية القديمة:

قبل أن نخوض في الديانة المصرية القديمة، يجب أن نلقى نظرة عما يسمى وراثة، فنحن نرث أشكالنا، وأطوالنا، وألواننا،

بل قد نرث أمراضنا، فلِم لا تكون العادات والتقاليد من ضمن ما نرث؟ لِم لا تكون العقائد من ضمن ما نرث؟ وبغض النظر عن تفسير الوراثة علميا، من خلال جينات أو كروموزومات وخلافه، فهذا أمر لا يعنيني، فكلها نظريات، ومعنى كلمة نظرية، إنها مجموعة من الفروض، قابلة للصحة، وقابلة للخطأ.

ولكني أرى أننا نرث كل شيء، ليس فقط المادي والملموس منه، بل نرث أيضا اللاماديات، والمعنويات، إلا أن البيئة المحيطة قد تغِّير ما نرث، وقد يتغيَّر ما ورثناه، نتيجة لتغيِّر البيئة المُحيطة بنا، ونتيجة لإهمالنا لبعض ما نرثه، وتركيزنا على آخر، فذاك يضمحل، وذلك ينمو، فإن عدنا لمصريتنا، ستعود لنا، وإن أحببناها، أحبتنا، وظهرت لنا، عاداتنا وتقاليدنا، بل عادت لنا ثقافتنا الدفينة الأصيلة لتنمو، وتزدهر من جديد.

إن فلسفة الأديان معقدة تعقيدا شديدا، ولا يمكن أن تفهم الأديان بلا فهم عدة عوامل، أهمها اللغة، والعادات والتقاليد، وأساليب الحياة، وأماكن الإقامة والعمل، وغيرها كثير، بل كثير جدا....

بل الأكثر من ذلك، أنه لا يكفى معرفة اللغة، أو العادات والتقاليد، لا يكفي المعرفة المجردة، بل أن الفهم المجرد لا يكفي، بل يجب أن ننخرط في الحياة، ونعيشها، ونعيشها أجيالا وأجيالا؛ لنفهم ما تعنيه الكلمة، ونفهم ما يعنيه المفهوم نفسه.

وهنا تكمن المشكلة، فاللغة المصرية القديمة قد اضمحلت، وما عادت مُستخدمة، سواء من العامة أو الخاصة، فقد نجد فئات

من مصرنا الحبيبة لها لكنات مختلفة: كصعيد مصر، وأعرابه، أو لها لغات مختلفة: كنوبيي مصر، ووواديها، ولكننا لا نجد لغتنا الأصلية، فقد أُستبدلت بلغات أخرى، لذا صعب علينا فهم أي عامل من العوامل الأهم في فهم الديانة المصرية.

إلا أننا بالرغم من كل ذلك، نجد أن لغتنا الأم لم تمت، فهي تطل علينا من بين كلماتنا، وتطل علينا من بين أفكارنا، لتقول: إن الحق لا يموت، إن الظلم لا يسود، فإن اتهمت ظلما، فحتما سنجد من يقف ليقول:

- لا
- لا تكفرونا.....
- فنحن مؤمنون.....
- نحن نؤمن بالله الواحد الأحد..... آمين
- نحن نؤمن بخالق الكون.. آمين
- نحن نؤمن بالأزلي..... آمين
- نحن نؤمن بأبي الآباء
- وأم الأمهات
- وثور البقرات السبع
- إننا نؤمن بالله الواحد الأحد
- آمين
- آمون

فما معنى كلمة آمون؟

قليل من تعرضوا لتفسير كلمة آمون، ولا أدعو إلى ذلك ولا أنفر منه، فمن يرغب في تفسير شيء فليسع وراءه....

ولكني أرى، وبغض النظر عن أي أساس علمي، وأي مرجع، أرى من داخلي، وأرى من مصريتي، وأرى مما غُرس في داخلي من تراث مصري.

أرى أن آمون تعنى في العلا، أو تعنى الموجود، أو تعنى الخفي.

لماذا؟

لآن آمون هو الإله الأعظم خالق كل شيء، ولعلو شأنه، فإنه خفي لا يمكن أن تراه عين بشر، لذا وجب أن يكون اسمه الخفي، ولأنه خفي، وجب أن يكون اسمه الموجود، للدلالة على وجود الخفي، ولأنه الإله الأعظم فهو في العلا....

من هنا كانت لفظة آمون، التي اشتق منها كلمة آمون؛ بمعنى الماء في اللغة النوبية، وهى ما تُعد امتدادا للغة المصرية القديمة، في كثير من ألفاظها، ومما لا شك فيه، إننا جميعا نعرف أن الماء هو مصدر كل شيء حي، فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: "أو لم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض

كانتا رتقا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون"[1]

ولكن من هم "موت" و"خنسو"، فالتاريخ يقول:....

ولا أدرى من هو التاريخ؟ ومتى قال؟

يقال أن آمون وموت وخنسو، هم ثلاثي مقدس يُعبد في طيبة، طيبة ذات المائة باب، كما تذكر كلمة أمونيت، وتذكر كلمة زوج وزوجة وابن.

فآمون هو الإله الأعظم اتخذ لنفسه زوجة، وهى موت، ليكون الإله خنسو هو الابن، فأين التوحيد من ذلك؟

قد تعرضت لما أراه من معان لكلمة آمون، ولكني لم أتعرَّض لآمون نفسه.

أرى....

- أن آمون هو الواحد الأحد خالق كل شيء
- أبو البدايات، أزلي أبدى، دائم قائم
- خفي لا يعرف له شكل، وليس له من شبيه.
- سرّ لا تدركه المخلوقات، خفي على الناس والآلهة
- سرّ اسمه، ولا يدرى الإنسان كيف يعرفه
- سرّ خفى اسمه. وهو الكثير الأسماء
- هو الحقيقة، يحيا في الحقيقة، إنه ملك الحقيقة.

١. سورة الأنبياء، الآية ٣٠

- هو الحياة الأبدية به يحيا الإنسان، ينفخ في أنفه نسمة الحياة
- هو الأب والأم، أبو الآباء وأم الأمهات
- يلد ولم يولد. ينجب ولم ينجبه أحد
- خالق ولم يخلقه أحد، صنع نفسه بنفسه
- هو الوجود بذاته، لا يزيد ولا ينقص
- خالق الكون، صانع ما كان والذي يكون وما سيكون
- عندما يتصور في قلبه شيئاً يظهر إلى الوجود
- وما ينجم عن كلمته يبقى أبد الدهور
- أبو الآلهة، رحيم بعباده، يسمع دعوة الداعي
- يجزى العباد الشكورين ويبسط رعايته عليهم[٢].

أما "موت"، وهى ما تمثل ثاني الثالوث الطيبي المقدس، زوجة آمون، وأم خنسو، ومرة أخرى، نرى اللغة، بل مضمون اللغة هي الفاصل، وهى التي طبعت في نفوسنا هذا التداخل، إن كلمة موت هي الترجمة الحرفية لكلمة "أم"، وحيث أن آمون أبو الآباء، لزم لتقريب الصورة إلى الناس، أن تكون هناك أم، أي أن تكون هناك زوجة، في حين أنني مازلت أقول: إنه ليس هناك من زوجة حيث، أن آمون هو أبو الآباء وأم الأمهات، إذن فوجود زوجة؛ ما هو إلا صورة، أو صفة من صفات آمون، بمعنى حال من أحواله، فهو الخالق، والخلق لا يستلزم

2. Wallis Budge, *Osiris and the Egyptian Resurrection*, Dover, New York, 1973, vol.1, p. 357.

أبا وأما، فهو الخالق، وليس الوالد، إلا أن الخالق آب، وكعطف الأم على أبنائها، لذا فآمون هو موت، أو موت هي صفة من صفات آمون، ولتسهيل الصفة شُبهت بمعنى، ولا أقول جُسدت بمعنى، ولكن شُبهت بمعنى؛ ليعود آمون، وموت آله واحد، ولتبيان أن آمون وموت ما هما إلا صورة لتوضيح خلق الخلائق، فقد تمثل "خنسو" على إنه المخلوقات، أو الابن، ابن آمون وموت، أو ابن آمون وآمون، نعم ابن آمون فقط، فـ"موت" ما هي إلا صفة توضيحية لخلق الكون، كما تلد الأم أبنائها، فإن الله قادر على خلق الكون والخلائق.

وكأي أب وأم، فهناك ولد، ولأن الأب رب، والأم كذلك، فإن الابن رب، إلا أنه فقط من أجل التوضيح لعملية الخلق، فالأب والأم والابن ما هم إلا إله واحد، وتم الوصف الذي قد لا يفهمه القارئ، ليس لأنه وصف غريب، أو صعب الفهم، ولكن؛ لأن القارئ لم يعش مصريته الكاملة، لم يعش عصرا، احتاج فيه التوضيح أن يكون على هذا الغرار المادي التجسيدي، فكما ذكرت سابقا، كثيرا من الأمور لا يمكن فهم كنهها، إلا إذا كنا في معية الثقافة نفسها.

و"خنسو"؛ لأنه الابن فهو المسئول عند غياب الأب الذي لا يغيب، ولكن لنعلم البشر، ولنعلم الخلق كيف تجرى مجريات الأمور، فالأب يسعى من أجل أبنائه نهارا، وعلى الأبناء، أو على الابن وخصوصا الابن الأكبر، مراعاة الأسرة أثناء راحة الأب، أثناء نوم الأب، على الابن مراعاة الأسرة ليلا، لذا تمثل

"خنسو" على هيئة القمر، فالقمر هو الذي يضئ الكون ليلا، وأتمنى أن نفهم المضمون العام لما أقول، فلا آمون ينام، ولا هناك من هو خنسو، ولكن الهدف من هذا التمثيل مجموعة من المبادئ والأهداف، قد تتداخل، وقد لا تتداخل، إلا إنني أقول في النهاية: إنها صفات وتمثيل لما يريده الإله من البشر، صفات وتمثيل لتوضيح مضمون كلمة راع، أو كلمة مسئول، أو كلمة إله، ودروس للخلق؛ حتى يتمكنوا من تنظيم أمور حياتهم، ولوضع قوانين، ونواميس قد تكون مكتوبة في بعض الرسالات السماوية، أو محسوسة في بعضها الآخر، وهنا في الديانة المصرية القديمة، فهي الحس، والإيحاء المصحوب بالتمثيل أو التجسيد المعنوي وليس التجسيد المادي، فما عبد المصري صنما قط، وألا قد وجدناه مؤلها، وإنما عبد المصري آمون الواحد الأحد، لنقول عن هذا الشعب الذي أبتدع التحنيط، لم يبتدعه من أجل تخليد ملك، ولم يبتدعه من أجل تخليد صنم، وإنما حنط المصري أجساد موتاه من أجل بعث، ومن أجل حياة أخرى، يُحاكم فيها ويُحاسب المرء على ما فعله في دنياه، ومن يحاسبه يتبع قوانين ونواميس، ومن وضع القوانين والنواميس هو الإله الواحد، وألا لاختلفت الروايات، فإننا نجد أن المصري، يُحاسب ويُسأل في قبره، أو أيا كان في أي مكان، يسأل بعد موته، عن عدة مسائل لم نجد فيها أي اختلاف، فما هي تلك المسائل؟

- أنا لم أغضب والدي.

- أنا لم ألوث مياه النيل.
- أنا لم أصد الماء في وقت جريانه.
- أنا لم أنقص القياس، ولم اغش في الكيل ولم أطفف في الميزان.
- أنا لم اطرد الماشية من مراعيها.
- أنا لم أتسبب في بكاء أحد.
- أنا لم أحرم إنسانا من حق له.
- أنا لم أختطف اللبن من فم رضيع.
- أنا لم أطفئ شعله في وقت الحاجة أليها[٣].

وإن كان ادعاء اختلاف الآلهة قائم، فإنه حريٌ باختلاف العقائد، إلا أن العقيدة المصرية واحدة، وما يسأل عنه المصري، لم يتغير أو يختلف باختلاف ادعاءات الآلهة المتعددة، وهذا يكفى للقول بأن الإله إله واحد، وليس آلهة متعددة كما يعتقد من لا ينتمي لمصريتنا.

٣. كتاب الموتى